

باب التوسل والتوسل

﴿ أميل القرن التاسع عشر ﴾

(٦) من هيلانه الى اراسم في يناير سنة ١٨٥٠

قد تلقيت مکتوبك أيها الحبيب من يد البريد السري فكان له علي احسن أثر
وأنتفعه فاني كنت في حاجة عظمى الى شيء يسليني ويسرّي عني بعض الألم
فلشدّ ما قاسيته منه مدة شهر . قد ضعفت صحتي وانحطت قوتي وللطبيب
الذي يشاهي في غيبتك ويوجه الي كثيرًا من الاسئلة ففكرة في سبب هذا
المرض أراها تشف عن جنونه فإنه يزعم اني . . . كلا اني لموقنة بخطائه في ذلك
وهما كان الامر اريد ان أراك فان هذا الفراق العاجل بعد الزواج الذي
لم يمض عليه أكثر من سنة خطب هائل لا يطاق ولا يمكنني ان اعيش معه
وأتي مسافرة مساء هذه الليلة من باريس وهي اجازة موقع عليها من ناظر
الحقانية بالأذن لي بزيارتك فلا بد ان يسمح لي بدخول السجن ولا يمكن
ان ماعدته رابطة الحب يحله استبداد المستبدين

لا تخش من شيء في هذه المقابلة فأنا لم اقصد بها الرغبة اليك في ان
تسمح الحكومة عفواً عنك فاني وان كنت أتألم لغيبتك كثيرا الا اني أحترم
وجداتك وهواجس نفسك وان لم أفهمها حق الفهم . اعلم ان في ما في بقية
النساء من مواضع الضعف وهذان العجز الا اني منزهة من دناءة الخدين
وخياتها لصاحبها فان شرفك داخل فيما احبه منك . وانك على احتباسك عني
وبعدك عن ناظري بما فيك من عزة النفس والشهامة وابلء الضيم لاجل
في نفسي منك وانت بين يدي ارفقت ما أدركه من مقتداتك التي جرت

على سننها طول حياتك . اني لما تزوجتك تزوجت شيئاً آخر معك اذ
وهو ضميرك ووجدانك فان بقيت علي ولائه متممًا ما يرشدك اليه اقسمت
لك اني اكون في الاخلاص لك كما تكون في الاخلاص له مدة حياتي
اودعك الآن لاراك قريباً ان شاء الله واكشفك محبة قلبي اياك وامتلأته
بالاشفاق عليك

(٧) من هيلانه الى اراسم في ٢٠ يناير سنة ١٨٥٠

اني لم يتيسر لي ان احدثك بشيء مما اردت محادثتك به عند اللقاء مع
ان حديثي ذو شجون . من أجل ذلك اردت ان اعترض عما فاني منه
بالمكاتبة فسطرت لك هذه الكلمات

كان مجيئي الى السجن بالامس واستفتاحي بابه في الساعة الثانية بعد
الظهر وبعد ان تحدثت مع مديره برهة اقبل نحوي احد خزنته يهدج في
مشيته وأنا اسمع خفق نعليه بشدة على البلاط وأخذني الى الغرفة التي كنت
انتظر فيها . كان قلبي قد وعدني قبل دخولي السجن ورؤيتي ما فيه ان
يستجمع كل ماله من الجراءة والثبات ليدفع بذلك عني بوادر الجزع وخواطر
الملح فلم يلبث بعد دخولي هذه الغرفة ان نقض ميثاقه وحل وثاقه .
وأعوزتني رباطة الجأش وثبات الجنان لما رأيتني وحيدة لا أنيس لي وجه الدم
في عروقي لما استولى علي من الدهشة والوحشة مع انقطاع الصوت في قباب
السجن الا ما يكون من صرير الابواب وصلصلة اغلاقها من بعيد اثناء
فتحها واقفلها . فلما بدا محياك لناظري فقدت بقية رشادي وغبت عن وجودي
فان فرحي برؤيتك بهد احتجابك عني وحزني لوجودك في مثل هذا المكان
قد اثار علي جميع ضروب الاتعمال فقدحتني وصرعتني ولم تبق لي من القوة

سوى ما اسكب به العبرات . وأردد الزفرات . فألقيت نفسي عليك . وكنت
كما تعلم بين يديك . انني رأيتك وقت التلاقي شاحب اللون ممتعه فهل كنت
مريضاً ؟ وليس من العجيب اني نسيت ان اسألك عن ذلك فاني اذ ذاك
كنت فانية فيك فما كنت افكر ولا ارى ولا احس ولا اقول شيئاً
اتعلم ماذا كان يقلقني من الافكار فوق ذلك ؟ انه كان يخيل لي ان تلك
الجدران جدران السجن الخيفة ابصاراً واسماعاً وادراكاً وانها تحس بي لو
صافحتك وتراني لو اشرت اليك اشارة ما وتسمعي لو افضيت اليك بسر
قتديه . لما عاد الينا خازن السجن ونبهنا الى ان وقت التلاقي الممنوح انما قد
انقضى من بضع دقائق قف شعري واقشعر جسمي وطار لي ولو اقسمت
له عن سلامة صدره لم يمض على دخولي السجن شيء من الزمن وان في
الساعة خلاً ادى الى هذا الخطأ لما كنت في اعتقادي حاشية . ووددت لو
بعت حياتي وجميع ما املكه من حطام الدنيا وان قل بساعة اخرى اقصيها معك
لم تكن لي مندوحك من فراقك على عصتي بمرارته فقارقتك مملوءة
الفؤاد من الحزن مسفرغة الدموع من العينين معنقة للسان من الوجوم
على شرف من فقد الادراك والشعور واجتزت مكان الاسلحة يتقدمني
دليل يحمل مصباحاً فان الليل كان قد جن على ما ظهر لي . لم يكن ابتعادي
عن حضرتك حائلاً بيني وبينك ولا شاغلاً قلبي عن الاستغراق في شهودك
كلا انني كنت اخاني في كل خطوة اخطوها اسمعك لتناديني مسترجعاً
ايامي ولقد التفت مرة لا تبين هذا النداء الوهمي فلم يقع نظري الا على وجه
من الحجر ذلك هو احد البابين العظيمين الحافظين لمدخل الترية
ساربي ذلك الدليل الحرّيت الواسع الخبرة بشاطيء المحيط ومواقفه على

حافة الساحل متجها نحو قرية... حيث يجب ان اقضي ليلتي هناك في ناموس
 (١) الصيادين . هذا الطريق وعث وقد امضني فيه الحزن والنصب حتى لقد
 حدثني نفسي غير مرة بان اجلس فيه واقضي ليلتي على تلك الرمال واني
 استميجك العفو عن ذلك فاني كنت اعلم النفس بقولي اني بجلوسي هاهنا
 انام بالقرب من سجنه على الاقل واذا اغتالتني الامواج فحسبي انني قضيت
 نحبي وأنا على مقربة منه . كنت في سبيل توطين نفسي على الصبر وتشجيعها على
 احتمال المكروه اردد النظر الى جهة... وكان الليل ساكنا الا انه كان حالك
 الظلام مخيفه فلا كوكب يبدو فيه ولا قمر وكان يزيد في كثافة حجب الظلام
 ذلك السحاب المزكوم وما يجود به من الرذاذ البارد اما البحر فكنت اسمع
 له من بعيد زعجرة وهديرأ وأرى فوقه الخرة سنجابية اللون . قد ثورت على
 ما وصفت لك من شدة الظلمة ضواً ضعيفاً كان يظهر بصيصه من نافذة في
 جهة الجبل وتعذر علي ان احكم ان كان هذا الضوء المتذبذب منبعثاً من
 السجن او من احد مساكن القرية وكنت مع هذا الشك الذي كان يحامرني
 في مصدره انظر اليه نظر المحب الى اثر حبيبه وكنت افكر انه ان انظفاً
 ينطفئ معه نبراس حياتي

قد وصلنا بفضل همة الدليل وخبرته بعد الجدل في السير الى نقطة تقابل
 ... فلم يبق بيننا وبينها سوى جدول يجتاز على المركب . جلست في المركب
 على مقعد من الخشب ارشدني اليه الجذافون لما اضنتني الافكار ونهكت
 قواي الجواطر . فكانت هذه الراحة والسكون المستتب حولي سببا في
 توجيه افكاري الى فكرة جديدة فبينما أنا افكر فيما كنت افضيت به اليك

(١) الناموس لفظ مشترك بين جملة معان منها منزل الصيادين

من حالة صحي وما استنتجه العلم منها اذ شعرت على الفور بحركة شيء
حي تحت منطقتي . الله اكبر ان الطيب كان مديباً فساكون عما قيل
: لا احسبك نسيت ان اعظم امنيته كانت لنا في ايام المناء الماضيه هي ان
يرزقني الله ولداً منك واثني اترتعد فرائضي عند التفكير في ذلك

ومهما كان من الامر فلا اخفي عليك نتيجة شعوري بالجلل وهي اني
بعد ان تكدرت برهه احسست بان شعاعاً من المرح والعزة يضيء في
جوانب ظلمات حزني واني في رجوعي من عندك لم اكن فريدة محرومة
من الرفيق وختل اني قد وجدتك بعد فقدك نعم ادركت مع الزهو
والاعجاب ان ذلك الذي يحنه حشاي وتضم عليه جوانحي هو انت ايها
الحبيب وهل هو الا مثالك الحي وبضعة من لحمك ودمك ؛ ثم خيل لي بعد
ذلك باحظة ان الامواج المضطربة تحييني باسنانك تحية الزوجه والام
وقلت في نفسي اني الآن في وسعي ان افتحم ظلمات الليل والرمال اللوعثة
ولا ابالي بالسجن ولا بأوامره الشديدة وحراسه وسجانيه وضحت بان
هؤلاء ليس في قدرتهم ان يأخذوه مني وانه هو في الجملة ابوه او على الأقل
بضعة منه يمكنني ان اخفيها في مستقري فأجعلها حرة بعيدة عن عدوان
المعتدين كما تخفي اللبوة الجريحة شبلها في غريبتها

اقول هذا ولكنني اري امراً يروغني ويبلبل فكري وهو طريقة تربية
هذا الولد فاني طالما سمعتك تكلم فيما يجب على الوالدين لاولادهم لمبارات
هي من سمو البلاغة وقوة التأثير بحيث ان قلبي كان يخفق اسماعها املا في
انه سيكون المقصود بها واليوم قد اقترب تحقق هذا الامل وانا من تحققة
في اشفاق ورعظ . من ذا الذي يقوم تلك الفروض التي انت تعلمها اكمل

العلم . فقد كنت نقول لي لو رزقني الله ولداً لوقفته حياتي على تعليمه وتربيته
وكنت تجاهر كل المجاهرة بانكار الطرق السائدة في تربية الناشئين واستهجانها
شديد الاستهجان كل ذلك لا يزال منقوشاً في ذاكرتي لكنني بقدر ما كنت
اعجب بافكارك ومقاصدك تعتريني الآن رعدة خوف أمام هذا التكليف
الذي سيقع ثقله عليّ وحدي فقد فرق بيننا قانون الانسان بهوّة حفرها
اتكون حاجزاً يحول بيني وبين الوصول اليك في وقت اكون فيه اشدّ
حاجة الى الاسترشاد بنصائحك والاستنضاء بنور معارفك والاعتماد على
معاونتك الادبية . ليت شعري ما سيكون من أمر هذا الولد اذا كبر وهو
محروم من رعاية والده وعنايته وما عسى ان أفعله له وأنا كالتقصبة الضئيلة قد
رزحت لبضعي وضعضني سقمي ؟

قد وجدت قويدون الزنجي البارّ الذي أحضرته معك من أمريكا
في انتظاري هو وزوجته على الشاطئ الآخرا للجدول فلما رأاني ارادا تقبيل
يدي رغماً عني قائلين ان هاتين اليدين صافحتا يديك وان لك الفضل عليهما
في الحصول على حريتهما . ما وصلت الى الشاطئ الا وأنا في قففة من البرد
قد وصل أثرها الى اعماق نفسي وكانت ثيابي مبللة فوجدتها والحمد لله قد
أعدالي فراشاً في احد نواميس الصيادين التي على ضفة الجدول وأذكياء لي
بها ناراً من قضبان اشجار يابسة فاخذ البرد يزول عني تدريجاً بتوقد اللهب
في المستوقد وارتحت لما كان بيديه لي كل من هذين الشخصين من اخلاصه
في الحب والولاء . ما شد عدوى بر الانسان وأعظم اثر احسانه فاني قد نمت
هذه الليلة احسن من نومي في سوابقها بعد ذلك النهار نهار التعب الجسماني
والنفساني الذي كدت فيه ان اسخط على الحياة واسأماها وأنا اكتب اليك

الآن في ناموس الصيادين بعد استيقاظي من النوم صباحا
تجد مكتوبى كما اتفقنا بالامس مخبأ فيما ارسله لك من الملابس التي توليت
طيها واصلاحها بنفسى . ورق هذا المكتوب وان كان رقيقا الا انه متين وقد
طويته طية جعلته فيها على شكل زر فليت شعري هل يتيسر لك قراءة خطي
الذي هو كأرجل الذباب

سأعود بعد غد الى السجن فقد وعدت بان يؤذن لي في الدخول من
الساعة الاولى مساء وعسى ان اتجدد في هذه المرة فأستجمع شتات فكري .
اقبلك الآن قبلة الوداع بكل ماني نفسي من قوة الشوق والملقى قريب
ان شاء الله . اه

﴿ أمالي دينية - الدرس الخامس ﴾

(١٧) وجود الواجب - عرفتم من الدرس الماضي معنى الواجب والمستحيل
والممكن وان وجود هذا العالم ممكن وان الممكن يحتاج في نظر العقل الى
مرجح يرجح وجوده على عدمه لانهما متساويان عنده وترجيح أحد
المتساويين بلا مرجح محال . والآن نقول ان المرجح لوجود هذا العالم الممكن
على عدمه لا بد ان يكون واجبا وبيانه ان ترجيح وجود الممكن عبارة عن
ايجاده وموجد الشيء لا بد ان يكون غيره ولا موجود غير الممكن الا
الواجب فتعين ان يكون ما يستند اليه وجود الممكن واجبا . أما كون موجد
الشيء لا بد ان يكون غيره فهو بديهي لانه لو أوجد نفسه لكان سابقاً
عليها في الوجود اذ المؤثر سابق على أثره طبيعاً فيقتضي ان يكون موجودا
قبل وجوده أي موجودا غير موجود في آن واحد وهو محال بالبداهة . فان
قيل انما يصح هذا بالنظر الى طبيعة الممكن التي تشمل جميع الممكنات ولنا